من (الإمام الشيخ) حسن البنا ..

الفقهاء والرواة والشراح والمفسرون وأهل التدوين لم يقدموا لنا الاسلام ، بل قدموا إجتهادهم وطرائق تفكيرهم ومصالحهم في فهم وتعريف الإسلام .

المحطة الثانية
صنعاء ـ 2004

حاوره في القاهرة و صنعاء:
أحمد الحبيشي

الحبيشي : أستاذ جمال، قبل ثلاثة عشر عاماً حاورناكم في القاهرة على صفحات صحيفة "الوحدة" عندما كنت رئيساً لتحريرها.. وخلال الفترة الفاصلة بين ذلك الحوار واليوم لم تنقطع لقاءاتنا التي اطلعنا خلالها على أفكار جديدة ومتجددة صدرت عنكم وأثارت جدلاً واسعاً بين أنصاركم ومخالفيكم .. وحين نلتقي اليوم في صنعاء لا يمكن أن نتجاهل تلك المياه الكثيرة التي سارت على نهر الفكر العربي بشكل خاص، والحياة بشكل عام.

الحق أقول ـ رغم الاختلاف ـ إنكم أحد أعمدة التجديد في الفكر العربي الاسلامي ، حيث بادرتم، بشجاعة مشهود لها ، إلى تأمل المتغيرات الهائلة التي حدثت ولا زالت تحدث في الحياة والعالم الواقعي .. وتطرح أمام العقل العربي أسئلة جديدة لم تكن في حجم ونوع تلك التي كانت إجابتكم عليها حينها غير مألوفة .. ولم يقبلها أولئك الذين استراحوا للنقل عن كتب الوضاعين والرواة والمفسرين الأسلاف ، وأقفلوا على عقولهم حتى صدئت.

ثمة سؤال يطرح نفسه بقوة في هذا السياق حول جمال البنّا ، الذي تحدث معي قبل إثني عشر عاماً عبر صفحات جريدة ((الوحدة)) الصادرة في صنعاء حين كنت رئيساً لتحريرها في مطلع تسعينات القرن الماضي ، وقال حينها كلاماً أغضب الكثير عندنا – وإن كان صوتهم قد خفت كثيراً هذه الأيام – ثم مقارنته بجمال البنّا الذي أتحدث إليه اليوم في بدايات الألفية الثالثة من التاريخ العالمي .. وفي ظل أحداث عاصفة هزت أركان المعمورة وتؤثر سلباً وإيجاباً على مجرى حياة البشرية والحضارة المعاصرة.

أنا ـ كما تعرف ـ أحد تلاميذك .. وإن كنت قد اختلفت معك أحياناً .. أنا أحبك في الله وأحبك في الدين وأحبك في كل انتماء إنساني يجمعنا .. ولذلك يهمني بعد إثني عشر عاماً من حوارنا الأول في القاهرة أن أعرف كيف يقرأ جمال البنّا عقله الذي أقول إنه يتجدد فيما يقول آخرون إنه يتبدل؟

البنا :أشكرك كثيراً وأعتز بصداقتنا واختلافنا في آن واحد، وأحبك – أيضاً – وأشعر بسعادة لا توصف كلما ألقاك.. والحال أن جمال البنّا، الذي يتحدث إليك في صنعاء الجميلة هذا اليوم .. إنما هو نتاج لمسيرة طويلة جداً في مجال الاشتغال بالفكر.. وفي محاولة التجديد على صعيد فهم الإسلام والاجتهاد في التعرف إليه والتعريف به بحسب منظوري الذي لا أزعم أنه الحق وحده .. وأن من يختلف معي هو من فرق الضلال التي لا ينجو أتباعها من النار مثلما يفعل آخرون!!

كانت البداية في عام 1946م عندما أصدرت كتاباً بعنوان ((ديمقراطية جديدة)) .. وقد تضمن هذا الكتاب فصلاً بعنوان ((نحو فهم جديد للدين)) .. جاء في هذا الفصل إشارة إلى الإخوان المسلمين وتوجيه لهم .. وكان شقيقي الأكبر حسن البنّا – رحمه الله – مؤسس جماعة الإخوان المسلمين وزعيمها ومرشدها لا يزال حياً .. ومن حوله أنصاره .. وكانوا كثراً.. قلت لهم في هذا الكتاب لا تؤمنوا بظاهر النصوص وألفاظها، ولكن يجب أن تؤمنوا بالإنسان .. وأتذكر أنك وضعت عنواناً مدهشاً لحوارنا السابق وهو "الفقهاء يريدون الإسلام والإسلام يريد الإنسان" وكان هذا العنوان قد ورد على لساني في ذلك الحوار الذي أجريتموه معي في القاهرة ونشرتموه بعد ذلك في صنعاء قبل أكثر من إثني عشر عاماً.

انطلقت في ذلك الكتاب ، وهو أول مؤلفاتي .. من فكرة الإمام الطوسي الذي كان يركز على مقاصد الدين وليس على ظواهر وألفاظ النصوص، وكان يرى أن المصلحة هي المقصد الأساسي في أي عمل يستهدف إحياء الشرع .. فإذا وجد نص يتعارض في ظاهره وألفاظه مع المصلحة .. وجب تغليب المصلحة وتأويل النص، وضربت مثلاً على ذلك في هذا العالم الحنبلي الذي ينتمي إلى القرن الثامن الهجري.

كنت أتساءل : كيف امتلك ذلك العالم الفذ هذه الجرأة وهذه الشجاعة ؟ .. وأتساءل اليوم أيضاً : كيف امتلكت الجرأة والشجاعة لأطرح أمام الإخوان وهم في عز قوتهم هذا الرأي؟!!

شغلت بعد ذلك بعدد كبير من الاهتمامات والهموم .. ثم جاءت حركة جمال عبدالناصر وصدامه مع الإخوان، ولم يكن بوسعي مواصلة طرح الأفكار التي تستهدف تجديد الفكر الإسلامي بسبب المناخ ألإقصائي الذي نجم عن ذلك الصدام .. وبعد أفول المرحلة الناصرية عدت إلى هذا الموضوع مرة أخرى.. وبدأت في كتابة بعض الأبحاث وإصدار بعض الكتب، ثم وجدت نفسي في عمق مشروع تجديدي يتكامل شيئاً فشيئاً.

عندما التقينا في منزلي بالقاهرة قبل أكثر من اثني عشر سنة، كانت بدايات هذا المشروع قد تبلورت .. ولكنه لم يكتمل خلال هذه السنوات الفاصلة بين ذلك اللقاء واليوم .. لكنها كانت فترة حاسمة – أي السنوات العشر الأخيرة – حيث بدأ هذا المشروع يتكامل، وإن لم يكتمل.. وهو بالضرورة لن يكتمل .. لأن الحياة مستمرة.. وأنا لا أرغب في أن أكون من الكسالى ذهنياً .. الكسالى الذين تصعقهم تحديات ومتغيرات الحياة ويعجزون عن الاستجابة لها ثم يتعلقون بأهداب حديث علامات قيام الساعة .. فيعكفون في المساجد أو المنازل انتظاراً للحظة القيامة التي تخلصهم من أزمتهم ومأزقهم.

في النصف الثاني من التسعينيات انتهيت من كتابة وإصدار مؤلف "نحو فقه جديد" من ثلاثة أجزاء خلال الفترة (1995 – 2000م) ولعلك تتذكر هذا أثناء وجودك في القاهرة ولقاءاتنا الطيبة معكم .. ويمكن اعتبار هذا المؤلف بداية لميلاد مشروع جديد نذرت ما تبقى من حياتي له وهو ((الإحياء الإسلامي)).

الحبيشي : ماذا تقصد بالإحياء الإسلامي؟

البنا : أقصد مشروعاً متكاملاً لتجديد إسلامي جذري لا يعتمد أبداً على التراث ولا على ما وضعه الفقهاء الأسلاف في عصورهم التي تختلف عن عصرنا .. فقد هالني إلى أي مدى يصل اعتزاز المسلمين بتراثهم إلى درجة التقديس.. علماً أن التراث لدينا هو تراث الفقهاء.. وليس القرآن .. لأن القرآن ليس تراثاً .. القرآن في مفهومي أصل.. والسنة المرتبطة بالقرآن أصل – أيضاً – ولكن التراث هو الفنون الفكرية التي أبدعها الفقهاء المسلمون خلال عشرة قرون تقريباً .. سواء أكان ذلك في تفسير القرآن أو في استخلاص الأحاديث والأحكام والفتاوى .. أو في وضع المذاهب الفقهية .. بمعنى أن الفنون الفكرية للفقهاء تتوزع في ثلاث فئات.

الحبيشي : لماذا تصر على وصفهم بالفقهاء ؟

البنا : كلهم فقهاء اشتغلوا في الفقه .. سواء أكانوا مفسرين للقرآن أو محدثين أو رواة أو أهل تدوين أو واضعي مذاهب فقهية .. هـؤلاء جميعاً كانوا يقدمون لنا ليس الإسلام .. بل إنهم قدموا أنفسهم في حقيقة الأمر.. بمعنى أنهم قدموا فهمهم للإسلام ولم يكونوا يقدمون أنفسهم كمتحدثين باسم الله مثلما يفعل البعض الآن، فقد كانوا حريصين على أن ينهوا كتبهم وفتاواهم بجملة ((والله أعلم)) !! .. أي أنهم لم يزعموا أنهم يقدمون العلم بكلام الله .. بل يقدمون اجتهادهم في فهم كلام الله .. أما العلم فهو للعالم وحده .. وهو هنا الله سبحانه وتعالى .. الذي لم يؤت عباده من العلم إلاَّ قليلاً .. والعلم القليل لا يؤهل صاحبه لأن يكون عالماً ، وهـذه حكمة إلهية يصر البعض على طمسـها أو تجاهلها .. ولا نـنـكـر ـ مع كل ذلك – أننـا، من باب التكريـم أطلقنا اسـم ((العلماء)) على أولئك الذين اكتشفوا أو اخترعوا أشياءً لم تكن معروفة في مجال الفضاء والطب والتكنولوجيا والاتصالات والطيران والبحار... الخ، فاستحقوا صفة أهل العلم بهذه الاكتشافات والاختراعات .. أما الذين يشرحون أو يفسرون فهم باحثون أو محدثون .. وعليه فأنا مقتنع بأن الفقهاء لم يقدموا لنا الإسلام والقرآن .. بل قدموا لنا أنفسهم وثقافاتهم وأفهامهم ومذاهبهم ومصالحهم التي تختلف من شخص إلى آخر ومن فريق إلى آخر، وهكذا.

الحبيشي : ربما لهذا السبب أنت نصحت الإخوان المسلمين في وقت مبكر بضرورة التمييز بين الإنسان والإيمـان .. وأنـا هنـا أتحـدث عن الإخـوان المسلمين كحركة سياسية في الإطار الإسلامي .. هل توجد إمكانية للفصل بين الإشكاليات الناجمة عن فهم الفقهاء للإسلام والإشكاليات الناجمة عن فهم الإسلام السياسي الحركي للإسلام .. مع الأخذ بعين الاعتبار قولكم إن الإسلام يريد الإنسان والفقهاء يريدون الإسلام، وقولكم – أيضاً – إنكم حذرتم الإخوان المسلمين قبل أكثر من نصف قرن من خطر المبالغة في الموقف من الإيمان على حساب الموقف من الإنسان بما هو هدف الإسلام المحوري؟ .. هل تعتقد أن الإسلام السياسي يعيد إنتاج إشكاليات الفقهاء الأسـلاف في العصور الغابرة حين قدموا أنفسهم ولم يقدموا – بالضرورة – الإسلام؟

البنا : الوهم الأكبر للمفكرين الإسلاميين وللمشتغلين في الإسلام السياسي الحركي ـ كما يصفون أنفسهم ـ يتمحور في اعتقادهم بفكرة أن الدولة هي التي تطبق الشريعة .. من الناحية الشكلية يبدو هذا الكلام منطقياً جداً .. لكن من الناحية الموضوعية .. وعند إمعان النظر.. يتضح أن الدولة ليست مؤهلة لتحقيق الشريعة .. وأنها إذا اشتغلت في الجانب التطبيقي لابد وأن تفسدها على طول الخط ، ولذلك أنا أعارض الدعوه لإقامة ما يسمى بالدولة الدينية التي تحكم تحت شعار حراسه وتطبيق الدين وتتخذ من هذا الشعار غطاء للفصل بين حقوق الله وحقوق الإنسان وتعيد الى الاسلام الدور الذي فقده رجال الدين المسيحي (الإكليروس) عندما كانو يمارسون دور محاكم التفتيش كوكلاء عن الله في الأرض قبل أن تطيح بهم العلمانية في أوروبا .

الحبيشي : كيف ؟

البنا : السلطة مفسدة .. والتصور الذي تدعو إليه الاحزاب السياسية الإسلامية للدولة هو التصور نفسه الذي وقعت وفشلت فيه الأحزاب الاشتراكية والقومية التي تصورت ان الدولة الاشتراكية هي التي تحقق العداله الاجتماعيه وتقضي على الفقر.. وأن الدولة القومية هي التي تحقق الوحدة القومية والكبرياء القومي .. فكانت النتيجة فساداً وظلماً وفقراً في الأولى وديكتاتورية وتمزيقاً للصفوف وإحياءً للنعرات المناطقية والطائفية والعشائرية بين أبناء الشعب الواحد، في الثانية .. هذا خطأ فظيع وقاتل أدى إلى فشل الدول الاشتراكية والدول القومية وانهيارها ، وادى، قبل ذلك .. إلى فشل دولة الخلافة الإسلامية ودول ملوك الطوائف على أطرافها ، وصولاً الى انهيارها .

الحبيشي : ولكن التاريخ يقول إن تجارب الدول الاشتراكية والقومية استمرت بضعة عقود فقط، أما دولة الخلافة الإسلامية فقد استمرت أكثر من ثلاثة عشر قرناً .. كما أن الدولة الدينية التي جسدها نظام الإمامة وممالك الطوائف في اليمن استمرت نحو 900 عام ؟

البنا : هذا الكلام غير صحيح ـ مع إحترامي الشديد لك ـ فالخلافة الإسلامية كانت اقلهم عمراً ، ولم تستمر أكثر من اثني عشر عاماً ، منها سنتان ونصف فقط خلافة أبي بكر وعشر سنوات خلافة عمر .. وعند مقتل عمر كانت الخلافة قد انتهت .. لأن عثمان اسس البدايات الأولى للدولة الملكية الوراثيه الاستبداديه التي تنسب نفسها إلى عرق معين هو العرق الأموي .. وإن كان بحكم صحبته للرسول صلى الله عليه وآله وسلم ـ وبحكم توافر الصحابة في ذلك العهد ـ أقل اظهاراً لهذه السوءات .. ولكن هذه السوءات ظهرت إلى السطح وحملت جماهير من الناس على أن تثور ثم تقتله .. وكانت هذه جريمة كبرى وعندما اراد علي بن ابي طالب ان يعيد الخلافة إلى ما كانت عليه وتحدى المتغيرات التي حدثت في عهد عثمان .. تآمروا عليه وقتلوه .. وكان يقف وراء قتله بذلك الشكل المأساوي معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص وبعض رفاقه من الخوارج .. وبالمناسبة جميعهم من الصحابة الذين تصفهم كتب الفقه الإسلامي بأنهم مستودع الرسالة.. وقد مزقتهم الدولة بما هي السلطة مثلما مزقت الشيوعيين والقوميين الذين أقاموا المجازر فيما بينهم تحت ظل الدولة العقائدية، الاشتراكية أو القومية .. أكتفي بهذا ولا تعليق)!!

(يقهقه .. ثم يشير بيده طالباً التوقف عن مواصلة الحديث حول هذا الموضوع)

الحبيشي : ولكنني أريد تعليقك .. ارجوك؟

البنا : حسناً، سأقول تعليقاً بسيطاً احتراماً لإلحاحك (يبتسم ويشرب قليلاً من الماء) .. كان المفروض أن يُقتل ثلاثة ليلة مقتل علي .. فقد خرج القتلة، وهم من الخوارج، ليقتلوا علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص .. حيث كان هؤلاء الخوارج يرون أن الثلاثة هم سبب كل المشاكل والخلافات بين المسلمين بصفة عامة .. والصحابة بصفة خاصة .. لكن رأس علي بن أبي طالب هو الوحيد الذي أصابه السيف في تلك الليلة المشؤومة .. بينما ضرب معاوية ضربة غير قاتلة .. أما عمرو بن العاص فقد نجا من سيوف القتلة لأنه ببساطة نام ولم يخرج للصلاة عند الفجر، بحسب ما تقوله لنا كتب التاريخ !!.

في ليلة 17 رمضان وعند صلاة الفجر، خرج ثلاثه من الخوارج اتفقوا على أن يقتل كل واحد منهم واحداً من هؤلاء الثلاثة (علي ومعاوية وعمرو بن العاص) .. لانهم سبب مشاكل المسلمين وانقسامهم بحسب تصور الخوارج .. كان النتيجة نجاحهم في قتل علي بن ابي طالب لأنه كان يستغرق في اللقاء مع الله أثناء الصلاه ولا ينظر إلى ما حوله حتى لا تُفسد صلاته .. أما الثاني والثالث فقد نجيا من مخطط القتل ، لأن معاوية كان يصلي بنصف عين وينظر إلى ما حوله بالعين الأخرى .. وتمكن من قطع صلاته والهروب من ضربة السيف .. اما عمرو بن العاص فقد كان مستغرقاً في نومه ولم يخرج لأداء صلاة الفجر؟!!

الحبيشي : أستاذي .. أنت تتكلم الآن بمنهج النقد التاريخي لتجارب إنسانية وسياسية لعدد من الناس يوصفون بأنهم صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومستودع السنة النبوية .. ما رايك في الطرح الذي يتهم من يمارس هذا النقد بانه يسب الصحابة؟

البنا : هذا ليس سبّاً يا صديقي .. الصحابة ليسوا ملائكة .. بعضهم كان يترك بعضهم إذا راى تجارة او مصلحة في ذلك ، وأنا قرأت في بعض كتب المفسرين ان بعض الصحابة تركوا الرسول "صلى الله عليه وآله وسلم" في الجامع بمجرد أن سمعوا بوصول قافلة فانصرفوا وتركوه ولم يبق معه سوى ثلاثة عشر فرداً.. وبعض الصحابة ارتدوا عن الاسلام قي عهد الرسول وكانوا من الذين يحفظون ويدونون القرآن .. وقصة هزيمة المسلمين في تل أحد بسبب اللهث وراء الغنائم معروفة.. الصحابة ليسوا معصومين، وكلمة صحبة تثير اسئلة كثيرة .. و هي من صنع المفسرين والمحدثين الذين اعتقدوا ان كل من رأى رسول الله « صلى الله عليه وآله وسلم » ولو للحظة واحدة فهو صحابي ويعتبر عدلاً ولا يشك أو يطعن في كلامه .. ولا يجوز نقده وكأنه نبي قديس وليس بشرا كغيره من الناس .

الحبيشي : عندما نعرف أن معظم صحابه رسول الله « صلى الله عليه وآله وسلم » قتلوا في العهد الاموي وهم مستودع السنة النبوية ومستودع الرسالة كما تصفهم كتب الفقه كيف نفهم تاريخنا ، خاصة عندما نقرأ على قبر أحد الصحابة في دمشق عبارة تقول : ((هذا قبر سيدنا الصحابي الجليل حجر بن عدي رضي الله عنه الذي قتله سيدنا الصحابي الجليل معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه؟)) بمعنى أن الله يرضى عن القاتل والضحية بحسب زعم هؤلاء .. كيف تفسر النظرة التي تضفي القداسة على الصحابة بما هم بشر غير معصومين من الخطأ .. فيما يتم إتهام كل من يستخدم العقل النقدي في قراءة التاريخ السياسي للمسلمين بأنه يسب الصحابة؟

> نحن نرفض تحويل الإسلام إلى مهنة تخصصية ..والذين يصرون على تحويل المعرفة الدينية إلى حقل اختصاص مهني هم تجار يشتغلون في السوق ويعرفون قوانين السوق .. إنهم لا يريدون اتساع نطاق المعارف الدينية حتى لا تنشأ عقول تعرف دينها فيزداد عدد العارفين بالدين على

البنا : يجب ألّا يغيب عن وعينا أن الإسلام منذ أن تحول إلى دولة بعد وفاة الرسول – صلى الله عليه وسلم – وتوقف الوحي، انتشر بسرعة مذهلة بالفتوحات التي ادخلت خلال السنوات العشرين الاولى مئات الألوف من الفرس والروم والمصريين ومن مختلف الشعوب والأجناس .. كل هؤلاء حملوا معهم ثقافات وحضـارات مختلفة .. ولم يكونوا يجيدون اللغة العربية حتى يمكن لهم فهم القرآن ويتبصرون فيه مثلما فهمه الرسول – صلى الله عليه وآله وسلم – وصحابته الاولون.

كل هذه الشعوب التي دخلت الإسلام بعد الفتوحات ورثت حضارات تقدس الملوك وتصبغ عليهم نوعاً من القداسة والتعظيم والتجليل .. وكانت هذه الشعوب في ظل إرثها الحضاري قبل الإسلام ، تقيم علاقتها النمطية بملوكها على اساس العواطف والمصالح .. اما العقل والعقائد والمبادئ والأخلاق فقد كان كل ذلك ياتي بالدرجة الثانية بعد العواطف والمصالح.

عندما انتشر الإسلام بقوة الفتوحات حدث اتصال بين الثقافات والحضارات السابقة له .. وارتد هذا الاتصال بصوره عكسية احياناً على طريقة فهم المسلمين للاسلام .. المسلمون الاوائل من صحابة الرسول – صلى الله عليه وآله وسلم – استفادوا من النبي الذي كانت علاقته بمن حوله تنطلق من القرآن .. إلى جانب ما وهبه الله سبحانه وتعالى من خصال تنظيمية وعقلية وتربوية وأخلاقية وإنسانية فريدة بحكم عصمته واتصاله بالوحي الإلهي .. ولذلك نقول ان تجربة المدينة فريدة لا تتكرر .. لان الرسول – صلى الله عليه وآله وسلم – هو خاتم الأنبياء ولن يتكرر .. ومشكلة دعاة الدولة الدينية التي تطبق الشريعة انهم مسكونون بمثال دولة المدينة .. وهي تجربة لم تتكرر .. بل انتهت بعد مقتل سيدنا عمر بن الخطاب، كما قلت لك سابقاً. اريد – ايضاً – أن اقول شيئاً مهماً عن دولة المدينة التي يدعون إلى احيائها .. تلك الدولة لم تكن دولة كمألوف الدول ، ولم تكن فيها مقومات الدولة بالمعنى والشكل اللذين تضج بهما شعارات الإسلام السياسي .. الدولة هي السلطة ، ولم تكن في دولة المدينة سلطة ولا حكومة مكونة من وزراء ودووابن .. كان الإسلام يبني مجتمعاً في المدينة على مبادئ القرآن ومقاصده وكان المسلمون فيها أمة واحدة .. لم يكن في المدينة شرطة او سجون او جيش محترف ، بل كان الجيش يتكون من متطوعين بأجسادهم او بأسلحتهم او بخيولهم او ببعض هذا وذاك .. والغنائم كانت توزع بينهم بحسب درجة مساهمة كل فارس او مقاتل في الحرب.. ولم يكن في دولة المدينة اجهزة لتنظيم المرور وفرض الضرائب ولم يكن فيها ادوات للقمع والارهاب والتجسس .. وفضلاً عن هذا كله كان النبي – صلى الله عليه وآله وسلم – هو الذي يقود مجتمع المدينة ، وكان النبي – صلى الله عليه وآله وسلم – يوحى اليه .. وكان الوحي يصحح للنبي – صلى الله عليه وآله وسلم – اخطاءه واجتهاداته ويجيب على القضايا الجديدة التي تطرح امامه .. والحقيقة أن جماعات وأحزاب الاسلام السياسي تكذب على الناس حين تقول إن النبي – صلى الله عليه وآلـه وسلم – بنى دولة في المدينة او في مكة.

الحبيشي : ولكن حركة الردة التي حدثت بعد وفاة الرسول – صلى الله عليه وآله وسلم – وأثناء خلافة ابي بكر، كانت تمرداً على الدولة بحسب آراء المستشرقين وردة عن العقيدة بحسب آراء الفقهاء .. بمعنى وجود دولة في العهد النبوي ؟

البنا : كان أبو بكر يدرك أن الرسول – صلى الله عليه وآله وسلم – مات والوحي انتهى .. وكان يدرك ان المجتمع الإسلامي الذي بناه الرسول – صلى الله عليه وآله وسلم – لابد ان يدار بآلية جديدة تضمن بقاءه في غياب الوحي وغياب الرسول .. وقد وجد ابو بكر نفسه أمام نزعات تسعى إلى الارتداد نحو الخلف .. كل شيخ قبيلة يريد العودة إلى قبيلته والحكم بالأعراف القبلية والتحرر من الزكاة التي كان دفعها للخليفة بعد وفاة الرسول يرمز إلى الولاء للمجتمع الإسلامي الكبير بدلاً من المجتمع القبلي الصغير.. ولذلك كان حزم ابي بكر ضد الذين ارتدوا عن دفع الزكاة ينطلق من حرصه على حماية وحدة المجتمع الإسلامي الكبير وعدم تمزيقه إلى مجتمعات قبلية متناثرة.

الحبيشي : هل كان هناك أساس عقائدي لهذه الردة؟

البنا : كان هناك اساس مصلحي سياسي وليس عقائدياً لأن المرتدين الرافضين لدفع الزكاة كانوا يؤمنون بالله ورسوله ويصلون ويصومون .. لكنهم امتنعوا عن دفع الزكاة للخليفة أبي بكر، فحاربهم.

الحبيشي : هل نفهم من كلامك أن قتال المرتدين في عهد ابي بكر كان ينطلق من منظور سياسي ولم يكن من منظور عقائدي؟

البنا : فلوس .. القضية فلوس على طول الخط .. ليست قضية عقيدة .. وقد كان أبو بكر صادقاً عندما قال : « لو منعوني عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه » .. القضية كلها اقتصادية .. شيوخ القبائل الأغنياء كانوا يرفضون دفع الزكاة للخليفة والذي بدوره يصرفها للفقراء في المجتمع .. الاستثناء الوحيد هو حالة مسيلمة .. وهو شيخ قبيلة بالمناسبة .. وكان يريد ان يفرض نفسه نبياً ولكن القبائل المرتدة معه ومع غيره كان معظمها يرفض دفع الزكاة .. وبعضها يرفض ولاية ابي بكر.. وهذه قضية اقتصادية سياسية .

الحبيشي : لا ريب في أن اختيارك طريق تجديد الفقه الإسلامي دفع الكثير من خصومك إلى إثارة التراب والغبار حولك بهدف الإسـاءة إليك .. وأشـهد أنك اجترحت مصاعب وآلاماً لا تحصى ثمناً لهذا الاختيار .. لقد اتهموك بأنك لست متخصصاً في علوم الدين ولست خريجاً أزهرياً ولا تلبس عمامة ولا تملك المؤهلات التي تمنحك لقب « الشيخ جمال البنّا » .. المثير للدهشة يا استاذي ان الذين يتهمونك بكل هذه التهم ويضعون على رقبتك حد السيف هم الذين يفخرون بقولهم أنهم أتباع « الإمام حسن البنّا » و« الشيخ حسن البنّا » شقيقك الأكبر رحمه الله .. والمعروف ان الأستاذ حسن البنّا لم يكن شيخاً ولا ازهرياً ولا متخصصاً في علوم الدين ولم يلبس العمامة .. بل انه كان يلبس الطربوش التركي .

البنا: (مقاطعاً) : ده كان يلبس البدلة والكرافتة الإفرنجية كمان.

الحبيشي (مواصلاً) : ومع ذلك اطلقوا عليه لأسباب سياسية وايديولوجية وحزبية خالصة صفة الشيخ .. بل وصفة الإمام .. ما تعليقكم ؟

البنا : هذا يدل على أنهم ضلوا طريقهم للخلاص من مازقهم الراهن والحاد .. ولو انهم لم يقولوا هذا الكلام لكان عليهم معالجة المشكلة الاساسية التي تتطلب منهم قراءة ثلاثة اجـزاء كبيرة من مؤلف تجديد الفقه الإسلامي.

عندما نزل الكتاب لاول مرة أراد صديقنا الدكتور شوقي فنجري – وهو رجل متفتح جداً – الاحتفاء به .. فدعا مجموعة إلى مناقشته في قاعة صالح كامل بجامعة الأزهر في مدينة نصر وحضر الندوة رجل كان رئيساً سابقاً للوزراء ومجموعة من المفكرين مثل الدكتور كمال أبو المجد وآخرون .. وقف في هذه الندوة رجلٌ ملتح وقال : انا لم أقرأ سوى أربعين صفحة .. يعني هو رجل أعمال وليس لديه وقت للقراءة .. طيب ياأخي ناقش الكتاب .. ما هو نقدك عليه.. يرد ويقول : « لم أقرأ الكتاب حتى أناقشه وأنقده، ولكن صاحبه لا يلبس عمامة وليس ملتحياً ولا أزهرياً » فمن أعطاه الحق قي الحديث عن تجديد الفقه !!

في مشهد آخر وقف علاَّمة نالت شهرته الآفاق في مداخلة تلفزيونية عبر قناة فضائية خليجية أمام رجل يحاوره من المانيا .. فقال الرجل للشيخ العلاَّمة : « ياسيادة الشيخ أنتم تتحدثون عن تجديد الفقه ولم نر حتى الآن شخصاً واحداً تصدى لهذه المهمة غير جمال البنّا ».

ما إن سمع الشيخ هذا الكلام حتى انتفض وقال : « جمال البنّا ليس شيخاً وليس متخصصاً في علوم الدين .. الفقه له رجاله » .. نعم قال هذا الكلام وتوهم لتوه أنه خرج من مأزقه.

الحبيشي (مقاطعاً) : عفواً أستاذ جمال .. الدين الإسلامي شأن عام والله أرسل الأنبياء والكتب السماوية للناس كل الناس .. وعندما يكون الدين بهذا الاتساع والشمول يصبح من حق كل إنسان ان يهتم بشؤون دينه .. وإذا نظرنا إلى معايير المعرفة قبل عشرة قرون أو أكثر، فسوف نجد أن المعرفة ووسائل الحصول عليها محدودة .. كما أن تقنيات المعرفة كانت محدودة جداً وبسيطة .. وبالتالي كان العارفون بالدين أو باللغة العربية أو باي علم العلوم عباره ن فئة قليلة جداً جداً ، ومحصورة في أولئك الذين تتاح لهم فرصة الحصول على المعارف أو الاشتغال بها حيث كانت مصدر رزق لأولئك المشتغلين في حقل المعرفة .. أما الآن فقد أصبح التعليم حقاً مشاعاً وواجباً على الدول والحكومات .. فيما تناضل الشعوب والمجتمعات وكافة القوى الحية من أجل جعله عاماً ومباحاً ومتاحاً لكل أفراد الأمة من التعليم الابتدائي حتى التعليم العالي والتخصصي .. في الاتجاه نفسه توسعت تقنيات التعليم وتقنيات الحصول على المعرفة وتقنيات نشر وتوزيع وتوثيق المعرفة .. بعد كل هذا التطور المعرفي هل لا يزال الدين شأناً خاصاً بفئة معينة من الناس الذين يسمون أنفسهم فقهاء، حيث لا يجوز للمؤمن أن يعرف دينه بعقله وبنفسه ؟ .. مع الأخذ بعين الاعتبار أن الله سبحانه وتعالى أول ما خاطب نبيه قال له وقال للناس من خلاله : (اقرأ) .. بمعنى أنه تكليف إلهي لكل الناس .. لكل المؤمنين بالله ورسوله وبكتبه وباليوم الآخر .. إنهم لا يريدون أحداً يقرأ سواهم .. لا يريدوننا أن نقرأ ونفكر .. يريدون القراءة لهم وحدهم .. ويريدوننا أن نقرأ فقط آراءهم ونلتزم بها .. وأن نقبل وننقل أخبارهم وتصوراتهم وتفاسيرهم وفتاواهم كما جاءت في كتب التراث الفقهي .. وبدون نقاش أو نقد أو إعمال للعقل .. كيف ترى هذه المفارقة؟

البنا : إنهم لا يملون الحديث بهذا الأسلوب ولا يخجلون منه .. وحين يصبح من حق أي مؤمن بل كل المؤمنين التبصر في دينهم ودنياهم والتعرف على الإسلام من مصادره الأساسية الكتاب والسنة الثابتة المرتبطة بالقرآن يصرخون ويقولون لقد أصبح الكلام في الدين مباحاً .. هذا تعبيرهم الأثير لديهم .. الشيخ محمد الغزالي رحمه الله قال : ان في كل العلوم هناك مختصون يعالجون القضايا المرتبطة بهذه العلوم .. فلا أحد مثلاً من رجال الطب يتحدث عن الهندسة ولا أحد من رجال الهندسة يتحدث عن المحاماة ، ولا يجوز لمحام أن يتحدث في الطب وهكذا دواليك .. فلماذا يكون الدّين وحده مثل الكلأ المباح لكل من هب ودب ؟ .

هذا كلامهم ، وهذا هو دينهم الذي يريدون أن يكون حكراً لهم وحدهم ، مع أن إمامهم وشيخهم حسن البنا لم يكن متخصصا في الدين، بل كان مدرسا لمادة اللغة العربية ، ولم يكن مثلما تفضلت شيخا أزهرياً ولم يلبس العمامة ، بل كان يعتمر الطربوش التركي .. وكما قلت لك سابقاً كان مواظباً على لبس البدلة والكرافتة الإفرنجية ..لكنهم لأسباب سياسية وحزبية يعطونه الحق ليس في أن يتحدث في الدين فقط .. بل وفي أن يكون إمامهم وشيخهم .. لقد اختاروا صاحب الطربوش والبدلة الإفرنجية والكرافتة وغير المتخصص في علوم الدين إماماً وشيخاً لهم .. ولا يريدون لغيرهم أن يتصرف مثلهم .. هذا ليس تناقضاً .. ليس مفارقة – بحسب ما جاء في سؤالك ــ إنه مأزق .. إنهم يريدون أن يضعوا سياجاً حول الدين .. يريدون إغلاق هذا الكلأ المباح كي يبقى إقطاعية خاصة بهم .. وتجارة يحتكرونها في يدهم وحدهم ولصالح جيوبهم وحدهم .

الحبيشي : هناك فرق بين الحرفة والعقيدة .. الحرفة قد لا تخص كل الناس .. إنها تخص نخبة أو شريحة معينة من الناس تحترف هذه الحرفة .. ويجب عليها أن تجتهد و تقرأ وتبحث عن الجديد من المعارف والجديد من التطبيقات العملية في مجال هذه الحرفة. ليس مطلوباً منّي أن أكون طبيباً أو مهندساً أو نجاراً أو حلاقاً .. ولكن هذا لا يلغي حقي في الاستفادة من هذه المهن في معاشي .. حيث تدخل كل واحدة منها في جزء ما من حياتي وليس في حياتي كلها كما هو حال العقيدة الدينية .. ولذلك فإنني أجد نفسي ملزماً باللجوء إلى المختصين عندما أكون مريضاً أو أحتاج لحلاقة شعر رأسي أو إصلاح حمام منزلي .. هل أصبح الدين حرفة اختصاصيه تنحصر معارفها وخبراتها في شريحة فنية من الاختصاصيين ولا تعني كل الناس؟

البنا : مطلقاً الدين عقيدة وقيم وإيمـان وغذاء روحي ومعاملات واقتناع.. وكل هذا لا يمكن حصره في مهنة أو أن نعتبره حرفة لشريحة محدودة .. لا يمكن أن نضيع وننكر هذا الشمول في الدين .. وهو عكس الاختصاص الأحادي في العلوم والفنون الذي ينحصر في يد فئة معينة.

من محاسن الإسـلام وخصائصه أن لا كنيسة فيه.. وليس فيه إكليروس ورهبان وأحبار.. الإسلام استبعد كل هـؤلاء وجعل العلاقة بين الله سبحانه وتعالى وعباده المؤمنين مباشرة بدون وسطاء .. الله سبحانه وتعالى جعل العبودية والملك له وحده ..فلا يوجد سيد وسيط بين الله عز وجل وعباده ولا ملوك أو أرباب يمثلونه في الأرض .. لقد حرم الإسلام الأحبار والرهبان من أن يكون لهم حق في التحليل والتحريم واعتبر ذلك شركاً.

عندما كان الرسول « صلى الله عليه وآله وسلم» يقرأ الآيـة الكريمة : « تخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله » كان عدي بن حاتم النصراني يسمعه .. فقدم إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وعلى عنقه صليب من ذهب.. ثم قال : يا رسول الله ما كنا نعبده ولكنهم كانوا يشرعون لنا به ويحللون ويحرمون ، ثم سلم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم صليبه ونطق بالشهادتين وأسلم.

الإسـلام في الحقيقة يقدم دعـوة لكل الناس .. للعالمين .. الإسلام لا نفهمه ونؤمن به إلاّ بالعقل ، والله سبحانه وتعالى لا نعرفه إلاّ بالعقل .. لم يكن الذين آمنوا بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم لأول مرة وأصبحوا من أهل الذكر والمعرفة بالفقه سوى أولئك البسطاء والفقراء وعامة الناس الذين أطلقت عليهم قريش أسنتها ، وطالبت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بأن يبعد هؤلاء من الإيمـان الوثيق ودرجته السامية .. جاءهم القرآن وهو يقول لكل واحد منهم : « إقرأ » ولم يقل لهم : «انقل » ما يقرأه لك الفقهاء مثلما يفعل شيوخ الكاسيت وشيوخ التلقين وحفظة النصوص في هذا الزمان .. إنهم لا يدافعون عن جاه أو احتراف أو تخصص فقط... الخ .. إنهم يدافعون عن مصالحهم .. المصلحة هي التي تسيطر على عقولهم وتدفعهم إلى تأويل القرآن بحسب مقاس هذه المصالح ، ثم يقولون لنا بعد ذلك : نحن أهل الفقه ورجاله .. اسألوا أهل الذكر .. وينسون إن سؤال أهل الذكر مشروط بقوله تعالى « إن كنتم لا تعلمون » .. ناهيك عن أن أهل الذكر الذين تحدث عنهم القرآن هم أنبياء بني إسرائيل .. وكانت الواقعة تدور حول نواح معينة .. عودوا إلى هذه الآية فسوف نجدهم يخرجوّنها من سياقها .. هناك أحاديث نبوية عديدة ترد عليهم .. خذ مثلاً ما قاله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « استفت قلبك وإن أفتوك » .. لم يقل إنقل ما قاله الفقهاء الأسلاف .. بل قال استفت قلبك حتى وإن أفتوك هذا الكلام يضر بمصالح بعض الفقهاء .. فالرسول صلى الله عليه وآله وسلم أحال الحكم في أي قضية إلى قلب المؤمن حتى وإن أفتاه الفقهاء .. وهو بهذا يحاصر أية نزعة لإضفاء طابع القداسة على النصوص الفقهية و تحويل الفقهاء إلى رهبان وأحبار .

إن هذا الحديث النبوي الرائع يوجه ضربة